محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة
ابتسام مرهون الصفار

اغراض شعرية قديمة ومتطورة (الغزل)

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

٤ـ الغزل :

اذا اردنا ان نقارن بين الغزل والاغراض الشعرية الاخرى في عصر صدر الاسلام وجدنا تفاوتا ليس في المعاني الجديدة التي طرأت على الاغراض الشعرية ، ولكن في مقدار الشعر الذي سجل في هذا العصر ، ومن المعلوم ان الاغراض الشعرية التي عرضناها من قبل استطاعت ان تواكب الدعوة الاسلامية وان تسخر كل غرض في خدمة الدين الجديد او تصوير حدث من احداث الدولة الجديدة . اما الغزل فما كان له ان يأخذ هذا الدور في الادب الملتزم او الموجه لخدمة الدعوة لطبيعة موضوعاته ومعانيه . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان طبيعة موضوع الغزل في عصر ماقبل الاسلام وكونه في الغالب جزءا من موضوعات متعددة تشتمل عليها القصيدة الجاهلية جعل تطوره في عصر الدعوة المبكرة محدودا . فكلنا نعرف ان معظم ماقيل من شعر الغزل في الجاهلية ، قيل في المقدمات الغزلية التي ابتدأ بها الشعراء قصائدهم وبقيت هذه البداية سمة فنية يتبعها الشعراء فيما بعد . فاذا اردنا تتبع ابيات الغزل في عصر الدعوة الاسلامية لم نجد فيها تطورا واضحا كالذي سنجده ونوضحه فيما بعد في العصر الاموي لان الشعراء وهم يبدأون قصائدهم بموضوع تقليدي احسوا بان هذه البداية لاتنسجم مع الموضوع المهم الذين وجهوا اليه اشعارهم وهو موضوع الدعوة الاسلامية ومايريد الشاعر ان يقول فيه مدحا او هجاء او فخرا فجاء تطور القصيدة او المقدمة الغزلية من ناحية اخرى حين وجدنا نماذج لشعراء حاولوا ان يجتزؤا ابيات المقدمة ، لينشغلوا عنها بسرعة الى موضوعهم الذي يشغلهم ويشغل المسلمين كافة ، وهي بدايات لم يلتفت اليها .

ونجد في قصائد حسان الاسلامية التي التزم بها بالشكل الفني للقصيدة العربية لمحات خاطفة تشير الى شعوره بعدم جدوى هذه الافتتاحية مع تعوده عليها ، والتزامه بها من قبل ، فنراه يبدأ القصيدة ببيتين او ثلاثة سرعان مايساوره شعور حاد بضرورة الالتزام بموضوعه الهادف ، فيحيد عن المقدمة باسلوب الردع الذي يستعمل فيه لفظة (دع) وقد مر بنا تفصيل ذلك في شعر حسان .

اما كعب بن زهير فان ابياته المشهورة في قصيدته التي مدح بها الرسول (ﷺ) ليست غزلا بالمفهوم الذي نعرفه وهو التغني بصفات المرأة او الحبيبة ، ذلك ان من يقرأ ابياته يجده واصفا لوعته وحبه لسعاد ذاكرا جمالها في بيت واحد ، اما الابيات التي تليها فهي وصف لغدرها وهجرها ، وتلون مواقفها معه كتلون الغول لينتقل بعد هذا ، او ليجد المسوغ للانتقال الى

الاعتذار عن مواقفه العدائية من الرسول (ﷺ) ثم يستمر بمدحه :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم اثرها لم يجز مكبول

وما سعاد غداة البين اذ عرضت
الاغن غضيض الطرف مكحول

وما تدوم على العهد الذي زعمت
كما تلون في اثوابها الغول

ولا تمسك بالود الذي زعمت
كما تمسك بالماء الغرابيل

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا
ومامواعيده الا الاباطيل

نبئت ان رسول الله اوعدني
والعفو عند رسول الله مأمول

وقد بالغ بعض الباحثين فيما استنتجوه من المقدمة الغزلية هذه فرأوا ان الرسول (ﷺ) قد اكرم كعبا وكساه كسوته لانه اعجب بالقصيدة وجودتها فأثاب عليها ورأى اخرون ان سماع الرسول (ﷺ) لقصيدة كعب واثابته عليها دليل موافقته على ماورد فيها كالمقدمة الغزلية خاصة ... وهو امر يرجح عليه تعليل اخر وهو ان الرسول (ﷺ) كان قد اهدر دم كعب ، وانه لخوفه قدم عليه متخفيا واعلن شهادة لااله الا الله وأمنه الرسول وطمأنه وحين قرأ عليه قصيدته كساه (ﷺ) البردة اعلانا واشهارا لعفوه عنه ليشيع بين المسلمين العفو عنه :

مهلاً هداك الذي اعطاك نا
فلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل (٥١٦)

(٥١٦) ديوان كعب بن زهير ، دار الكتب القاهرة الشعر والشعراء ١٥٥/١ .

وحين تثبت قواعد الدولة الاسلامية ويتوزع الشعراء في رقعتها الكبيرة يجدون متنفسا في الحديث عن قضايا شخصية وذاتية وتتنوع مواقف الشعراء في الدولة فيتنوع من ثم شعرهم واغراضهم الفنية ويصيبها تطور كبير يوافق اتساع الدولة الاسلامية وتوسعها في العصر الاموي . فيتخذ الغزل طابعا جديدا مختلفا عن طابع ماقبل الاسلام في معانيه وكثير من موضوعاته ، ونجد اثر الاسلام بمعانيه وصوره واضحا في هذا الغرض الفني اكثر من غيره ، واذا بالشاعر المتغزل يستمد من معاني القرآن مايعينه على وصف لوعته وحبه ومن التعاليم الاسلامية مايسمح له في ترقيق قلب الحبيبة لتلين في موقفها وهجرها له ويتأثر الشاعر المتغزل بكثير من مبادئ الدين الاسلامي وتعاليمه او بالاحرى بكثير من الصور الفنية الواردة في القرآن الكريم ليصف جمال صاحبته وحبه لها وهذا في رأيي تطور كبير في فن الغزل فاق به غيره في العصر الاموي فضلا عن ان قلوب المسلمين في نجد والبادية زادها الاسلام رقة وعفة وابعدها عن الفحش في الغزل وتصوير المرأة تصويرا ماديا مما خلق ضربا جديدا من الغزل لم يعرفه الادب العربي من قبل وهو الغزل العذري . يقول الدكتور شوقي ضيف واصفا غزل نجد والبادية العذري (فنحن اذا ماتركنا الحجاز والشام ومدنها الكبيرة الى نجد وجدنا العرب هناك يعيشون كما كان اباؤهم معيشة فيها شظف وحرمان ، وقد مسح عليها الدين الجديد بروحية احدثت سموا في النفوس وسموا في الشعر نفسه ، وشاع في هذه البيئة الغزل ، ولكنه تميز فيها تميزا واضحا عن غزل مكة والمدينة .. اما في البادية فكان الغزل عفيفا لان العرب هناك لم يعرفوا الترف ولاافسدتهم الحضارة وقد رقق الاسلام نفوسهم وصفاها (٥١٧) ولسنا هنا في مجال المقارنة بين الشعر العذري في البادية والاخر الصراع في المدينة في العصر الاموي انما يهمنا ان نتتبع المعاني الجديدة التي دخلت هذا الفن ، وهي معان دخلت بظهور الاسلام وجاء تعبير الشعراء عنها في فن الغزل تعبيرا طبيعيا لانها تمثل الصور التي تحكم حياتهم وتوجهها وهي صور لم تكن مقتصرة على الغزل العذري فحسب بل تجاوزتها لتدخل الى موضوع الغزل عامة العفيف منه والصريح وسوف نحاول تتبع هذه المعاني لانها تمثل تطورا كبيرا لفن شعري عرف منذ العصر الجاهلي ، ولكن تطور معانيه جاءت طبيعية بسبب سيادة الاسلام ومبادئه ، واستقرار الوضع الاجتماعي في العصر الاموي خاصة .

---

(٥١٧) انظر حديث الاربعاء ١٨٥/١ ، ١٥/٢ - ١٨ تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ٢٣٤ ، اتجاهات الشعر في العصر الاموي ٤٣٠ .

فاذا اراد الشاعر ان يجعل صاحبته ترق لحاله ، فانه يصف وجده والام نفسه ويذكرها بعقاب الله لكل من يقتل عمدا ، وهو العاشق الذي تلفت نفسه ويكاد يقتل بسببها يقول العرجي :

فخافي عقاب الله في قتل مسلم
برئ ولم يقتل قتيلا فيقتل (٥١٨)

وقد يدعو الشاعر ربه لكي يرق له قلب الحبيبة ، ويصف موقفه في دعائه وابتهاله لله مصورا شدة لوعته لمن يحب . يقول مجنون ليلى واصفا حاله :

فياعجبا فين يلوم على الهوى
فتى مدنفا امسى من الصبر عاريا
ينادي الذي فوق السموات عرشه
ليكشف وجدا بين جنبيه ثاويا (٥١٩)

ويقول عمر بن ابي ربيعة داعيا الله تعالى ايضا :

فأجز الحب تحية واجز الذي
يبغي القطيعة حبه هجرانا
آمين ياذا العرش فاسمع واستجب
لما نقول ولاتخيب رجانا (٥٢٠)

ويقول جرير :

رغبت الى ذي العرش مولى محمد
ليجمع شعبا او يقرب نائيا

---

(٥١٨) ديوان العرجي ١٥٥ وانظر اثر القرآن : ١٢٢ .

(٥١٩) ديوان مجنون ليلى ٨ .

(٥٢٠) ديوان عمر / ٥٩ .

إذا العرش اني لست مـــــاعشت تـــــاركا

طـلابي سلمى فـأقض مـاكنت قـاضيـ(٥٢١)

ويقول جميل بثينة وقد بلغ به الوجد مبلَغه داعيا الله ان يرقق قلب بثينة او ينسيه حبها ليستريح :

نبـــارب حببني اليهـــــا واعطني

المـــودة منهـــا انت تعطي وتمنـــع

والا فصبرني وان كنتُ كارهـــــــا

فـاني بهـا يـاذا المعـارج مـولع(٥٢٢)

ويستغيث الشاعر العرجي بالله من ضناه وهواه ليلطف بحاله :

بـــارب اني قـــد شقيت بهـــا

فـألطف فـانـك رب ذو لطف(٥٢٣)

وكون الله تعالى يعلم سرائر النفوس ومانخفي من حب او الم فكرة استغلها شعراء الغزل فيقول النابغة الجعدي واصفا حاله وهو يخفي اسم صاحبته ويكنى بغيرها عنها ، وهو عالم بان الله وحده العالم بما يخفي قلبه :

واكني بغير اسمهـــا وقـــد

علم اللـــه خفيـــات كل مكتم(٥٢٤)

وقد استفاد عمر بن ابي ربيعة من هذه العناصر والافكار التي دخلت لغة الغزل واستعملها لافي بيان حبه ووجده بل في نقل الحوار الذي يدور كثيرا في اشعاره بينه وبين من يحب ، او بينه وبين رسل الحبيبة او العذال فيقول ناقلا ماورد عن لسان صاحبته التي تتهمه بانه لايبقى

---

(٥٢١) النقائض ٧٤١/٢

(٥٢٢) ديوان جميل / ١٨ .

(٥٢٣) ديوان العرجي / ٦٠ .

(٥٢٤) ديوان النابغة الجعدي : ١٥ .

على حب واحد ومع ذلك فهي تحبه بدليل انها تدعو له الله في ان يغفر له ذنوبه :

فتبسمت عجبـــا وقـــالت حقـــه
ان لايعلمنـــــا بمـــــا لم نعلم
علمي بـــــه واللـــــه يغفر ذنبـــــه
فيما بـــــدالي ذى هـــــوى متقسم(٥٢٥)

وتدعو له اخرى الله المتكبر الجبار في ان يحفظه ويصونه :

فقلت لهـــا قـــد قـــادني الشـوق والهـوى
اليـــك ومـــانفس من النـــاس تشعر
فقـــالت وقـــد لانت وافرخ روعهـــا
كـــلاك بحفـــظ ربـــك المتكبر(٥٢٦)

وذكر جمال الحبيبة عنصر من عناصر القصيدة الغزلية ، ومع ذلك وجدنا بعض الشعراء من يعطيه مسحة خاصة تدل على تطور هذا الفن وتطور لغته فذو الرمة يستفيد من الاية الكريمة التي تصور ارادة الله ومشيئته في ان يقول للشيء (كن فيكون) ، فيصف من خلالها عيني بثينة قائلا :

وعينـــان قـــال اللـــه كـــونـــا فكانتـــا
فعـولان بـالالبـاب مـاتفعـل الخمر(٥٢٧)

ويقول كثير عزة مستفيدا من فكرة نشر الموتى بارادة الله يوم القيامة فيصف جمال صاحبته وتأثيره في النفس ، بحيث يكفي ان تلمس الميت لينشر وتعود اليه الحياة :

والميت ينشر ان تمس عظـــامـــه
مســـا ويخلـــد ان يراك خلـــودا(٥٢٨)

(٥٢٥) ديوان عمر : ٢٣ .
(٥٢٦) المصدر نفسه .
(٥٢٧) شعر ذي الرمة : ٢١٣ .
(٥٢٨) ديوان كثير : ٦٧ .

ويلاحظ من خلال هذه الاشعار ان اللغة الشعرية الغزلية قد اصابها تطور كبير بعد الاسلام بسبب رقة المشاعر التي هذبها الاسلام وتوجه فيها الغزل وجهة عفيفة بعيدة عن الفحش خاصة في الغزل العذري وقد ظهر هذا جليا في الشعر المنسوب الى بني عذرة وفي شعر جميل بثينة وكثير وغيرهم ولعل اطرف ماوصل الينا من شعر يمثل تهذيب نفس المحب بسبب تعلقه بمبادئ الاسلام ماذكر من شعر عروة بن حزام - وهو من الشعراء العذريين - يصف فيه شدة مايعانيه من حبه لعفراء بحيث ان هوها يغلبه وهو يؤدي فرض صلاته في الوقت الذي يعرف فيه ان المؤمن الصالح لايخلط بذكر الله شيئا وهو يواجه القبلة . فيتألم لتذكرها ويخاف الله بسبب ذلك ويتساءل ماالذي سيسجله الملكان اللذان يحصيان اعماله واقواله يقول :

اصلي فـــابكي في الصـــلاة لـــذكرهـــا
لى الـــويـــل ممـــا يكتب الملكان (٥٢٩)

وهكذا فان المتتبع لفن الغزل في هذا العصر يجده قد تطور تطورا كبيرا ماكان له ان يتطور لولا نزول الاسلام والظروف الجديدة التي طرأت في حياة العرب ، ولكن هذا التطور اتخذ سبيلين في العصر الاسلامي - عصر الدعوة اولا اذ ابتعد الشعراء عن قول الغزل الا في مقدمات تقليدية بسبب انشغالهم في الدفاع عن الدعوة والعقيدة حتى اذا استقرت النفوس ، والامور عادوا ليعبروا عما تعانيه نفوسهم من مشاعر واحاسيس ، فكان من ضمن ذلك الغزل ، ولكنهم نظموا كثيرا منه باسلوب متأثر بالقرآن الكريم وبطبيعة الحياة العربية الجديدة .

---

(٥٢٩) شعر عروة بن حزام ٢٧ وقد نسب البيت الجميل في ديوانه ٢٠٠ .